

العمارة تأصيل للهوية وصرح شامخ للثقافة الإنسانية

سنان باشا.. حلقة عبقرية في النادي المعماري للحضارة البشرية



سحر العمارة في القباب والمآذن



بصمات في الديكور

الجامع الأربع، وكل منها ذات ثلاث شرفات، وتتميز المذنبتان الواقعتان ناحية الباب الرئيسي بأن لكل شرفة من شرفاتها الثلاث سلام مستقلة، أما المذنبتان الأخريان فلكل منها سلم واحد. ويخطف الجامع الذي كتب خطوط زينته المولوي حسن بن قره حصارى عقول الزوار بالخرف الملون الذي يزينه، ومنبره المغنى بالرخام ومقصورة السلطان.

ويقول سنان عن دواعي إبداعه في هذا المسجد "إن المعماريين الآخرين يقولون إننا متفوقون على المسلمين لأن عالم الإسلام يخلو من قبة عظيمة مثل أيا صوفيا، وإن بناء مثل هذه القبة الضخمة أمر غاية في الصعوبة، وكان لكلامهم هذا تأثيره المؤلم في قلب هذا العبد العاجز (يقصد نفسه). لذلك بذلت الهمة العالية في بناء هذا الجامع، ويعون الله ثم بتشجيع السلطان سليم خان قمت بإظهار المقدر، واقمت قبة هذا الجامع أعلى من قبة أيا صوفيا بست أذرع وأعرق بأربع أذرع".

توفي المعمار سنان عام 1588، خلفا وراءه 365 أثرا معماریا في تركيا وخارجها، تمثلت في 92 جامعا كبيرا و52 مسجدا صغيرا و55 مدرسة عثمانية و7 دور لتحفيظ القرآن الكريم و20 ضريحا و17 دارا لإطعام وإيواء الفقراء و3 مستشفيات، و6 ممرات مائية و10 جسور و20 خانة و36 قصرا و8 مخازن و48 حماما.

واختار سنان موقعا متميزا لبناء المسجد، يظهر مدى خبرته في التخطيط العمراني إضافة إلى براعته في العمارة، إذ اختار الموقع على تلة مرتفعة تطل على كل أرجاء المدينة.

وشيد الجامع من الحجر وتبلغ مساحة القسم الداخلي له 1620 مترا مربعا بينما تبلغ المساحة الكلية بالصحن 2475 مترا.

سنان باشا ترك وراءه 365 أثرا معماریا في تركيا وخارجها، تمثلت في مساجد ومدارس وقصور وجسور وممرات مائية

وغطى سنان المكان كله في الجامع بقبة واحدة قطرها 31.25 متر دون اللجوء إلى أنصاف القباب التي كان قد استخدمها من قبل في جامع شاه زاده والسليمانية.

وترتكز القبة على 6 ركائز ضخمة، كما تدعم القبة أربعة أنصاف قباب بالزوايا ونصف قبة فوق المحراب. وللجامع أربع مآذن تتخذ شكل أقلام يبلغ ارتفاعها 85 مترا، وهي ثاني أعلى مآذن العالم ارتفاعا بعد مئذنة "قطب منار" في نيودلهي بالهند. وتقع كل مئذنة في زاوية من زوايا

أيا صوفيا ومعرفة سر وعظمة قبتها، وكشف مكامن الضعف فيها التي عرضتها للتشققات أثناء تعرضها للزلازل.

واختار سنان موقعا متميزا لبناء المسجد، يظهر مدى خبرته في التخطيط العمراني إضافة إلى براعته في العمارة، إذ اختار الموقع على تلة مرتفعة تطل على كل أرجاء المدينة.

وشيد الجامع من الحجر وتبلغ مساحة القسم الداخلي له 1620 مترا مربعا بينما تبلغ المساحة الكلية بالصحن 2475 مترا.

وللجامع أربع مآذن باطوال مختلفة في زوايا الصحن. اثنتان في طرفي واجهة الجبهة الامامية بارتفاع 56 مترا ولكل منهما شرفتان. أما المذنبتان الأخريان فتقعان في الواجهة الخلفية، ويبلغ ارتفاع كل منهما 76 مترا وبكل منهما ثلاث شرفات.

وتحتوي رقبه القبة على 32 نافذة صغيرة لتوفير إضاءة جيدة. وصرن الجامع عبارة عن مساحة مستطيلة يتوسطها شاربوران للوضوء ويحيط به 28 رواقا.

مهندس مبدع

يعتبر جامع السليمانية، الذي يتوسط مدينة أدرنة، حجر الأساس لفن العمارة الإسلامية، ومرحلة الاستاذية ويعتبر تحفة فنية تزين المدينة ومن أبرز الآثار المعمارية في كل العالم.

وقال هو عنها إن الأول يمثلها صبا يتعلم، والثاني معماریا متمكنا، والثالث أستاذا، وهذه الصروح هي جامع شاه زاده بإسطنبول عام 1548، وجامع 1551 وأتمه عام 1577، وجامع السليمانية في أدرنة الذي تم تشييده من 1568 إلى 1574.

مرحلة النضج

يصف سنان عمارة مسجد شاه زاده بأنه وليد تجربته الأساسية في الولوج إلى طريق تصميمي خاص به في تعامله مع الفضاءات المقتبة، إذ يعتبر عمارة مسجد السليمانية في أدرنة بمثابة رائحته التصميمية، فإنه يشير إلى عمارة مجمع السليمانية كونها مرحلة تتسم بنضوجه المهني في تعاطيه مع عمارة القباب والفضاءات المقتبة.

وأنشئ الجامع على شكل مربع تعلوه قبة كبيرة تحيط بها أربعة أنصاف قباب. وترتكز كل القباب على أربع ركائز ضخمة.

وللمسجد صحن خارجي كبير له ستة أبواب وله مئذنتان لكل منهما شرفتان. وإلى جانب الجامع يضم المجمع مدرسة ودارا لإطعام الفقراء وأخرى للاستراحة وعدة أضرحة.

يعد جامع ومجمع السليمانية الذي يمثل مرحلة النضج في مسان سنان المعماري، من أهم الجوامع في إسطنبول وفي العمارة الإسلامية، ما يزال يزوره السياح والمختصون في فن العمارة، فهو معلم شهيد أحد أجدادهم، ويقدمه اليوم درسا تطبيقيًا لنسائي المعماريين الذي يتكون من أول من شيد بالطوب أو الطابوق إلى الهندسة العربية العراقية زهاء حديد التي طبعت بصمتها أشهر عواصم ومدن العالم.

وجاء هذا المسجد تحفة هندسية ونتيجة لخبرة طويلة بعد دراسة سنان لمخطط

وصل الإبداع الإنساني في فن العمارة إلى ذروته من تراكم تجارب المهندسين من عمارة الطوب إلى هندسة الكنائس المدهش مرورًا بفن الزخرفة الإسلامية، ليصل اليوم إلى قمة الإبداع من خلال ابتكارات المهندسين المعاصرين الذين تركوا بصمة شامخة في فن العمارة، لكن هؤلاء المعاصرين أثروا خبراتهم من خلال مهندسين سبقوهم، منهم المهندس العثماني سنان باشا، الذي تفنن في تشييد القباب والمآذن.

إسطنبول - رغم مرور 433 عاما على وفاته، ما يزال المعماري الشهير سنان باشا حلقة من حلقات الهندسة المعمارية الخالدة التي تركت بصمتها في تاريخ فن العمارة، واستفاد من عبقرية التي تخطت حدود عصره مهندسون من كل العالم في نحت بصمتهم في هذا الميدان الذي يشبه العملة ذات الوجهين، وجه للفن وآخر للعلم، فالحضارة تطورت بفضل تراكم التجارب الإنسانية التي لا تعرف الفصل بين الحدود الجغرافية ولا الديانات ولا حتى الجنسيات.

وإذا كانت الهندسة المعمارية تاصيل للهوية، فإنها وجه من وجوه الحضارة الإنسانية التي شاركت في بنائها الشعوب بمختلف جنسياتها على مر العصور، وإذا مر إنسان بدولة غير دولته ووجد صرحا معماریا ببصمة لوحد من أهل بلده، فسيفتخر حتما بما يراه وسيجعله يفخر لا بما أنجزه ابن أو بنت بلده فقط، بل سيبتغين أن ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية اليوم ليس إلا ثمرة جهد بشري.

حلقات من تاريخ العمارة

المتمعن في الصروح المعمارية الشهيرة سجد فيها خطوطها من التاريخ وإرثا واسعا من الفلسفة والثقافة، لذلك لا يفخر العراق اليوم ولا حتى العرب وحدهم بزهاء حديد، بل تفخر بها الصين أيضا والولايات المتحدة بما أنجزته لهما من بنايات لن يحوها تقادم الزمن، لذلك لقبها العالم بملكة المآذن.

والأمر ينطبق على المعماري الكندي فرانك جاري الذي عرف بقدرته على خلق المساحات التي تعالج السطوح غير المستوية. ومنحت البرتغال أيضا البشرية مهندسا معماریا عبقریا والمعروف عالميا باسم الفارو سيزا، والذي تقوم فلسفته على تحويل الواقع إلى أشكال متغيرة في ظل رؤية ثورية، حتى اعتبرته لجنة تحكيم جائزة بريكتلر أنه من أوائل المجددين في مجال الهندسة المعمارية في العالم.

ويعتبر البعض فرانك رايت أهم معماري على مر العصور، رغم أنه قام بتعليم نفسه أهم أسس الهندسة المعمارية، وتعتبر أعماله جزءا من الطبيعة المحيطة بها حيث يؤمن رايت بدمج التأثيرات العضوية للحصول على لوحة فنية يتناغم فيها المعمار مع الطبيعة.

والمهندس الصيني ليو مينغ بي الذي درس الهندسة في الولايات المتحدة وقام بتصميم بعض أهم المباني الحكومية في العالم وأهمها مركز أبحاث الغلاف الجوي بكولوراو حيث يعد واحدا من أهم المباني ذات الطراز الفريد في العالم. هذه أمثلة قليلة جدا على أن المهندس المعماري حرف من حروف مجلد هندسة البناء في تاريخ البشرية، وهي أمثلة لأسماء معاصرة لكنها

حتمًا استفادت ممن سبقها من المهندسين الذين مروا حتما على إنجازات المهندس التركي سنان باشا الذي أن الأوان للأترك لأن يفخرها به لما تركه من آثار معمارية لم تقتصر على تركيا بل امتدت لتشمل كثيرا من أنحاء الدولة العثمانية، فشييد جامع محمد باشا البوسني في صوفيا عاصمة بلغاريا، وجامع خسرو باشا في حلب وجامع السلطان سليمان ومطعم السلطان الخيري في دمشق، إلى جانب أعمال معمارية في البصرة والقدس والمدينة المنورة.

